تجيء كأنما أقبلت تزور هذا الظل، فهي تلم به حينًا وكأنما تناجيه وكأنه يسمع منها وكأنه يرد عليها، وكأني أسمع نجوى هذه الظلال ولكني لا أحقق ما أسمع، وكأني أفهم نجوى هذه الظلال ولكني لا أتبين ما أفهم … وأنا جامدة هامدة لا أحس ولا أرى إلا هذا الينبوع الذي يتفجر في غير انقطاع، وهذا الظل الذي لا يتحول عنه، وهذه الظلال التي تغشاه بين حين وحين. يا له من ينبوع كريه أود لو أحول عيني عنه، ولكن حمرته تجتذب عيني إليه اجتذابًا! إنه لينبوع غزير، ولكنه لا يتفجر منه الماء، وإنما تتفجر منه الدماء، يا له من ظل حزين كئيب شاحب مسرف في الشحوب أحاول أن أغمض عيني وأن أغلق نفسي فلا أحس له محضرًا، ولكن شحوبه يستهوي نفسي ولكن حزنه يمزق قلبي، ولكن انحناءه على هذا الينبوع يملؤني لوعة وروعة وابتئاسًا! يا لها من ظلال تذهب وتجيء هادئة لا تكاد تشعر ولكن في حركاتها ما يملأ النفس جزعًا وهلعًا! ما لي لا أثبت عيني في هذا الظل المقيم، وما لي لا أثبت عيني في هذه الظلال المضطربة التي تذهب وتجيء؟ أنائمة أنا أم مستيقظة؟ أعاقلة أنا أم ذاهلة؟ ألست أتبين في هذا الظل المقيم ملامح أختي، فما لها إذن لا تكلمني …؟ وما لها إذن لا تدعوني …؟ وما لها إذن لا تناجيني؟ لقد عرفتها مُحِبَة لي، واثقة بي، مطمئنة إلي، فما لها لا تُظهر لي شيئًا من هذا الحب، ولا تبدي لي شيئًا من هذه الثقة، ولا تبين لي عن شيء من هذا الاطمئنان؟ إنما هي مكبة على هذا الينبوع تنظر فيه كما تنظر الفتاة الجميلة في المرآة، عمَّ تبحث في هذا الينبوع؟ أتُراها تلتمس صورتها في هذا الدم المتدفق؟ وما لها لا تكلمني، أليست تراني؟ ما لها لا تجيبني، أليست تسمعني؟ ما لها لا ترق لي ولا تعطف علي؟ أليست تسمع هذا النداء الذي ينبعث من فمي باسمها في صيحات قوية عنيفة متلاحقة؟! إني لأسمع هذه الصيحات ولكني لا أرى من أختي أنها تسمعها، وكأن هذه الصيحات تخيفها وتزعجها! فهذا ظلها يستخفي وتستخفي معه الظلال الأخرى، ويستخفي معها الينبوع الأحمر، وهؤلاء أشخاص آخرون يسرعون إليَّ ويدنون مني ويستجيبون لي، فلا أكاد أنظر إليهم حتى أتبينهم، ثم أخافهم، ثم أبغضهم، ثم أتقي محضرهم بالصمت والهدوء … إنهم أهل الدار قد سمعوا صياحي فأقبلوا يرفقون بي ويسألونني عما أجد.

إنهم أهل الدار، وما أشد بُغضي لأهل الدار، إني لأرى بينهم أمي وإني لأكره أن أرى أمي، كلا! لأكف عن هذا الصياح لعل أهل الدار أن ينصرفوا عني فيجنبوني محضرهم الكريه؛ إني لآخذ نفسي بالصمت، وأُكره نفسي على الهدوء، وما هي إلا لحظات صامتة هادئة حتى يُسدل ستار ويُرفع ستار، وهذا الينبوع الأحمر يتفجر من الأرض قويًّا